

أهرام مصر

Edwards : The Pyramids of Egypt. (London, 1948).

ظهر هذا الكتيب الجميل في ثوب قشيب وتنسيق رشيق ، وحوى خلاصة ما عرف عن أهرام مصر .

وحرص المؤلف على أن يزيد هذا الموضوع وضوحاً ، فبدأه بمقدمة تاريخية رسم فيها بخطوط عريضة كيف نشأت الآراء الدينية من تقاليد محلية ظلت حتى النهاية متوارية خلف الديانة المصرية القديمة ، وكيف تمخضت تلك الآراء عن الوحدة السياسية لوادى النيل وعن نظريات في الكون تتمثل في عبادة الشمس وعبادة أزوريس ، ثم يعرفنا في مقدمته بمعتقدات المصريين فيما بعد الموت وفي مصير الموتى .

ويأخذ الفصل الأول شكل مقدمة هو الآخر ، إذ يلجأ المؤلف — قبل أن يدخل في صميم الموضوع — إلى تلخيص تاريخ المقابر الأهلية والمصطبات التي كان يدفن فيها الملوك وكبار رجال البلاط قبل الشروع في بناء الأهرام . ويستعين بآخر ما كشف من آثار على تحديد الصفات المميزة للأشكال المتتابة التي انتهت آخر الأمر إلى الوضع الذي عم وساد ابتداء من عهد الأسرة الرابعة . ويشير إلى استعمال الرسوم البارزة والتماثيل والمذابح والأعمدة ، باعتبارها من مستلزمات الدفن في المصطبات ، ويلخص مغزاها ورموها .

ثم يعالج الموضوع الأساسي في سلسلة من الفصول مرتبة ترتيباً زمنياً : ففصل للأهرام المدرجة (الأسرة الثالثة) ، وفصل يتناول دور الانتقال إلى الأهرام الحقيقية (بداية الأسرة الرابعة) ، وفصل عن مجموعة أهرام الجيزة (الأسرة الرابعة) ، وآخر لأهرام الأسرتين الخامسة والسادسة ، وفصل عما أقيم بعد ذلك من أهرام . ويسهب المؤلف في وصف آثار كل قسم من هذه الأقسام ، متوخياً الدقة المطلوبة ومعنياً بالتفاصيل ، وعلى الأخص ما يتعلق منها بالمقاسات والإيضاحات النظرية وغير النظرية ، مما يلقي ضوءاً على تاريخ بناء الأهرام والغرض من بنائها .

ويفرد المؤلف الفصل السابع والأخير لطريقة بناء الأهرام والغرض من بنائها ، وهما مسألتان شد ما تضاربت الآراء فيهما . غير أن الأستاذ إدواردز — جرياً على عادته — يطرق الموضوع رأساً ، فيدحض في كلمة موجزة الآراء التي تبدو في نظره غير متمشية مع الحقائق ، ولا يتكلف مناقشتها ، ويعرض رأيه الخاص مدعماً بجميع الأسانيد والمبررات الكافية .

والرأى عنده في أمر تشييد الأهرام أن يدور البحث قبل كل شيء على أساس من الفحص الدقيق لبنائها ، مقترناً بالمام واسع قدر المستطاع بالأدوات المسورة في ذلك العهد ، ما دامت تعوزنا الوثائق المصرية المكتوبة أو المرسومة ، وهو محق في هذا الرأى .

غير أن هذه الطريقة قد لا تجدى في تذليل جميع الصعوبات ، وهو أول من يقر بذلك ، ولكنها تسمح على الأقل بتحقيق مجموعة من التفاصيل تصلح أساساً لنظريات آمن جانباً من غيرها .

وعلى هذا النهج وبهذه الروح يعرض الأستاذ إدواردز آراءه في الطريقة التي شيدت بها الأهرام ، من بدء تسوية الأرض إلى وضع هرم صغير فوق قمة البناء ، ويستعرض في الوصف أساليب التوجيه الفني والطرق التي كانت تستعمل في قطع الكتل الجرانيتية أو الكلسية ، وفي تشييدها وتشكيلها ونقلها . أما عن رفع هذه الكتل ، فإن المؤلف يؤكد الرأى القائل باستخدام طبقات من التراب والطوب ، وهو الرأى الذى ذهب إليه ديودور الصقل (١ ، ٦٣) — إذا جاز لنا أن نضيف شيئاً إلى الأصل الذى نحن بصدد الكلام عنه — هو الرأى الذى انعقد الاجماع اليوم على تأييده دون غيره ، إلا أن علماء الآثار يختلفون في أمر وضع تلك الطبقات وترتيبها . ويذهب الأستاذ إدواردز إلى أن المصريين كانوا يكتفون بتغطية واجهة واحدة من واجهات الهرم ، بطبقة ترتفع وتضيق حسب مقتضيات البناء ، وعلى هذه الطبقة يحجرون الكتل الحجرية الضخمة ، ويرفعون الدعامات ويرتبونها صفّاً صفّاً ، ويغطون الواجهات الأخرى بممرات ثانوية متدرجة وألواح خشبية تسمح بمرور العمال وأدوات البناء . أما صقل واجهات الهرم وغطاؤها بالملاط فكان يجري من أعلى إلى أسفل ، تلاحقه أولاً فأولاً إزالة طبقات الصعود الرئيسية والجانبية . وكان يفرغ لبناء الحجرات الداخلية فريق من العمال يستعملون مرقاة خاصة مستقلين عن بقية الهرم .

وهذا في رأى الأستاذ إدواردز هو التفسير الذى يتفق وحقائق علم الآثار تمام الاتفاق ، ويطابقها تمام المطابقة ، ولم يبق إلا أن يدلى المهندسون المعماريون — الذين ينتمى الأستاذ إليهم — برأيهم في هذا التفسير المبني على أساس سليم معقول .

ولستر إدواردز رأى في المغزى الذى ينطوى عليه بناء الأهرام يناقض على طول الخط نظرية بورخارت الذى يذهب إلى أن تطور بنائها ما هو إلا تطور معمارى بحت ، فالمصطبة البدائية قد أوجت بمضاعفتها طبقات بعضها فوق بعض مما أدى إلى بناء الهرم المدرج ، وهذا بدوره قد ملئت درجاته الخالية فصار هرمًا كاملاً . وقد أصاب مستر إدواردز في اعتراضه بأن تدرجاً فنياً من هذا النوع — إذا حدث — يكون شائعاً ويظهر في جميع الأنحاء ، وعلى ذلك لا يتيسر لنا أن نفسر على أساس نظرية بورخارت كيف أن مصطبة بنيت في عهد الأسرة الأولى ، وكشفها إمرى عام ١٩٣٧ في سقارة ، توحى وقتذاك بفكرة هرم مدرج ، ولا كيف أن هرم دهشور المخروطى (وهو هرم كامل عدل شكله في أثناء بنائه) يمكن أن يكون سابقاً على هرم ميدوم الذى بنى أصلاً ليكون هرمًا مدرجاً . والأرجح في نظره أن كل شكل من أشكال هذه المقابر إنما يرتبط بعقيدة من العقائد ، وأن تغير هذه الأشكال ينبىء عن تحول في الآراء . فالمصطبة التى يمثل الجزء العلوى منها القصر تشير في الأصل إلى الاعتقاد بأن الروح تقيم إقامة أزلية في أعماق سراديب المقبرة ، ويعلن الهرم المدرج الشبيه بالسلم صعود الروح إلى السماء وانطلاقها نحو الفردوس الشمسى . أما الهرم الكامل الشبيه بحزمة من أشعة الشمس مسلطة على الأرض ، فإنه يشير كذلك إلى الاعتقاد في ألوهية الشمس ، ولكنه تأليه على نهج آخر يشهد به ما في الأهرام من كتابات ونصوص . ووجود هذه الرموز على شكل أجرام هائلة في وسط المجموعة الجنائزية للملك الدولة القديمة ، إنما هو تنمة حلقة من التماثيل والنقوش والسفن المدفونة بمحاذاة الأهرام ، وهذه الحلقة الكاملة تنهض دليلاً على آراء خفية وحقائق غير مرئية . ويذهب الأستاذ إدواردز في نظريته إلى أبعد من ذلك ، فيزعم أنه يستطيع أن يترجم (مر) وهو الاسم المصرى القديم للهرم بمكان الصعود ، ونحن نفضل أن يترجم « وسيلة الصعود » . ومهما يكن من أمر فأغلب الظن أن الأستاذ إدواردز محق تماماً في أن يعتبر شكل الآثار الجنائزية للملك الدولة القديمة معبراً عن عقيدة

من عقائدهم ، وكل تغيير طرأ على استعمال هذا الشكل كان نتيجة لتطور ديني تشهد بحدوثه بعض النقوش المعاصرة له .

وإنه لمن العسير أن تنفع عين المرء على هفوة في مؤلف نفيس كهذا لعالم متعمق في الآثار المصرية من طبقة الأستاذ إدواردز ، غير أن الآراء قد تختلف على بعض التفاصيل . وقد يتساءل القارئ : هل يعتبر تأثر الديانات المصرية القديمة بالتقاليد المحلية دليلاً على تساهل الملوك ، كما يفهم من السياق ، أو هو ناشئ عن رغبتهم الملحة في الاحتفاظ بملكية كل شبر من الأرض المصرية دون منازع ، باعتبارهم ورثة الآلهة . ومن الجائز أن يرتاب القارئ فيما أورده المؤلف من تعليل للنقوش المحفورة في التماثيل الجنازية ، إذ أنه يعلل وجودها بأنها تعاون الموتى على تعرف حقيقة شخوصهم في الحياة ، وقد يصير القارئ على رأيه في أن الأحياء هم المقصودون بهذه النقوش لأن التماثيل كانت توضع في أماكن عامة ، ولو أنها أخفيت في أعماق القبور لحاز أن يفسر ذلك بأن النقوش المحفورة عليها إنما هي صيغ للتكريس والتقدیس .

هذه آراء نطرحها على بساط البحث الحر ، أما الكتاب في ذاته فلم نلاحظ فيه إلا نقطتين تافهتين غير دقيقتين :

ففي صفحة ٥٥ يصف المؤلف المساحة الجنوبية للهرم المدرج ، ويشير مرتين - سهواً - إلى اللوطس باعتبارها شعار الوجه القبلي ، والمقصود بطبيعة الحال زهرة النيلوفر .

وفي صفحة ١٤٧ ينسب إلى المسيو قارى إدارة الحفائر التي أجريت عام ١٩٤٥ ، عند هرم الشواف بإشراف مصلحة الآثار . والواقع أن الذى كان يتولى إدارتها هو المرحوم المهندس النابه عبد السلام حسين الذى فقدته مصلحة الآثار منذ عهد قريب ، وفجعت فيه وهو ما يزال في ريعان الشباب .

وينتهى الكتاب بثبت مرتب ترتيباً زمنياً يشمل على أربعة وثلاثين هرمًا من أهم الأهرام ، وأمام كل واحد منها وصف موضعه ومقاساته واسمه القديم .

يلي ذلك بيان واف بالمراجع ثم فهرس ، ويتحلى الكتاب بخمس عشرة صورة فوتوغرافية واضحة المعالم وأربعة وثلاثين رسماً .

إيتين دريوتون

ترجمة أحمد حلمى على